إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

مع مقدمة فى التصوف الإسلامى ودراسة تحليلية لشخصية الغزالى
وفلسفته فى الإحياء

بقلم

الدكتور بدوى طبانة
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الرابع

مكتبة ومطبعة "كرياطه فوترا" سماراغ

فهرس

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال ﷺ «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه[1]» وقال تعالى «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن حببني إلى عبادي فقال بماذا قال بأن تذكرهم آلائي ونعمائي فاذن غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

(بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف)

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ولذلك قال علي كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته. وأما خوف الابن فايمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى - ويحذركم الله نفسه - وقوله عز وجل - اتقوا الله حق تقاته - وأما الأول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وبسبب ضعف الايمان وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال

(١) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم.

ابن المعلم يقول سمعت أبا بكر التلساني يقول اصحبوا مع الله فان لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول سمعت أبا جعفر الحداد يقول سمعت علي بن سهل يقول: الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل

يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لايخلو عن تأثير وأما الثانى وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد أيضاهى خوف الصبى من الحية تقليداً لأبيه وذلك لايستند إلى بصيرة فلاجرم يضعف ويزول على قرب حتى إن الصبى ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلايحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالبه لايحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفنى كما تخاف السبع الضارى ولاحيلة جلب فى الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى مخالبه فلايحتاج إلى حيلة سواها فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل مايشاء ولايبالى ويحكم مايريد ولايخاف قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة بل صفته ماترجمه قوله تعالى هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى وإن خطر ببالك أنه لايعاقب إلا على معصية ولايثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لامحالة على أوّل لاعلة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال لا احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجدلك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتبه الله علىّ قبل أن أعمله وقبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (١) » فمن عرف السبب فى هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة وقوع الصبى الضعيف فى مخالب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب مايتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمى اتفاقا وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا والواقع فى مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لايخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد نبه القائل نظما على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :
وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من قعود المرء وحده
[الباب الرابع والخمسون فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى]
قال الله تعالى ـ وتعاونوا على البرّ والتقوى ـ وقال تعالى ـ وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالمرحمة ـ وقال فى وصف أصحاب

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر .

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكلّ واحد أهلا يسوقه القدر المتفرّع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسرّ القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء. وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأوّلين والآخرين (١) وكان أشدّ الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول «اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفي رواية ثانية «أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك أنه كذلك والله إني رسول الله وما أدري ما يصنع بي إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لايزاد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لاأزكى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لاأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبي الذي ولدني قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه ، وروى في حديث آخر «عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : ومايدريك لعله كان يتكلم بما لاينفعه ويمنع مالا يضره (٦) » وفي حديث آخر «أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبي هريرة أنا سيد ولد آدم ولا فخر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله إني لأخشاكم لله وقوله والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أو صبية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف في إسناده فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلة تقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فغضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يابني الجنة ورواه البيهقي في الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذي إلا أنه قال إن رجلا قال له أبشر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصحبة فإنه يفتح على نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ـ وقيل